بين الرهبان

بقلم الاب انطونيوس شبلي اللبناني
رئيس انطوش جبيل

رأى الرهبان اللبنانيون شريعة العمل واجبة فتقيّدوا باحكامها مستبشرين وانقادوا لاوامرها طائعين ، واندفعوا يديرون ايدي العمل في شقّ الارض وخدّها غير حاسبين للتعب حساباً . وما فتئوا يغالبون صمابها وصدامها بصبرهم ونشاطهم حتى ذلت لهم واستكنت فجنوا من جيّد البذار وفر الخيور والثمار .

ترعرعت الرهبانية بالعوز والفقر . وكانت اراضيها لا تفي بحاجة ابنائها ، فاضطرّت ان تستأجر اراضي عين بقره سنة ١٧١٣ من الحاكم الشيخ عيسى حماده بثمن عشرة غروش في السنة ، واراضي بسبعل سنة ١٧١٥ من مشايخ ناحية الزاوية في طرابلس مدّة عشرة عقود تبلغ خمسة وثلاثين غرشاً في كل عام[1] . فأجال الرهبان فيها آلات الحراثة فدرّت عليهم بالنتاج والنماء . وبكدّهم وجدهم وعرق جبينهم وبمساعدهم القويّة حوّلوا صخور بعض بقع لبنان الصمّاء وارضه الجدباء الى تربة خصبة وجنان نضرة غنّاء تُشبع القلب غبطةً ومسرّةً والعين بهجةً ورواء . وهم الذين علّموا الشعب قواعد الزراعة ودرّبوهُ على العمل بها وكانوا له فيها مثال الحزم والاجتهاد .

قال السيد ميسلن في سياحته بلبنان سنة ١٨٤٨ ، في معرض كلامه عن دير قزحيّا ودير مار سركيس وباخس قرطبا :

---

(١) تاريخ الرهبانية ١ : ٨٥-١١

« ان رهبان دير قزحيا يقسمون وقتهم بين الصلاة وحراثة الارض . وما كان ذلك الوادي الا خراباً فأجال الرهبانُ فيه يد العمران بنشاطٍ لايعرف الملل فأخصب بشغلهم وتزينت تلك الجبال غير المحروثة وغير المسكونة بما غرسوا فيها من الاشجار وأكسته بثوبها الاخضر . وعليه فلا يوجد ملك مكتسب بعدل كاملاكهم . والرهبان في لبنان ، دأجم في كل مكان ، هم الذين بدأوا بكري الارض وعزقها واوجدوا للزراعة قواعد ضامنة لهم النجاح وقدّموا لغيرهم من انفسهم امثلة صبرٍ ونشاط . »

وليس في العمل من ذُلّةٍ ولا غضاضة والمرء مجبرٌ على السعي لرزقه ، أما الحقارة والصغار ففي البطالة . لذلك اوجب القانون الرهباني على الراهب العمل روحياً كان او جسدياً ، وحذّر عليه البطالة تلافياً للسّاوئ الناجمة عنها . وهذا ما علّقه مؤسس الرهبانية المطران عبد الله قراعلي على فقرة القانون :

« عمل اليد الرهباني يجب ان يكون بقدر القوّة لا ازيد ولا انقص لانّ الله سيطالب كلًّا منا عن عمل ايدينا بمقدار القوّة التي اعطانا اها . وسيطالبنا بحسنا الذي خلقه مالمّا ان عملنا فوق طاقتنا فجعلناه آلةً لا نفع منها عاجزة عن العمل . . . فيجب على الراهب الصحيح الجسم ان يلازم العمل روحياً كان ام جسدياً لئلا ينقلب للبطالة بل ليغلت من شرّها وينجو من الرذائل المتولدة منها . لانّ البطالة آفة الاعمال الصالحة كافةً ، والراهب العامل يقاتل شيطاناً واحدًا اما البطّال فيلتزم قتال شياطين كثيرة . وقد حثّ القديس بولس على البطّال بالنفي والطرد من الجماعة . . . واذا كان العمل غير مفيدٍ للاخوة فيخطئ صاحبه الى الفقر والى المحبة . . . ولا يأتي الراهب عملًا الا ما يقلّده رئيسه لئلا يصبح عمله خطيئةً ضد القانون » (١

رسخ حبُّ العمل في قلوب الرهبان فاقبلوا عليه بنفس طيبة ومضاء عزم يشحذه التمرّن والجلد على الاشغال الشاقة حتى افرط بعضهم فيه وانهكوا البدن ممّا دعا شارح القانون الى ايجاب العمل على قدر القوّة كما مرّ . وكانوا كلما كثر عددهم كثرت فيهم الايدي العاملة لانّ معاشهم لم يكن الا من الاراضي فراحوا يقتلونها بالمعول ويزرّقون احشاءها بالمحراث ، وما انفكوا حتى استخرجوا من قلبها الكنوز والخيور واقتنوا بجدّهم ونصبهم ما اقتنوا وورّثوا احفادهم من الاملاك ما ورّثوا « وبعرق جبينهم اكلوا خبزهم » (تكوين ٣: ١٣) ، وهم « يتعبون عاملين بايديهم » (١ كور ٤: ١٢) . ولهم ان يردّدوا بكلّ حقٍ وصواب آية الرسول الشريفة : « ما اكلنا خبز احدٍ مجاناً بل اشتغلنا

١) كتاب المصباح الرهباني في شرح القانون اللبناني الحطّي ، للمطران قراعلي ، الفصل الحادي عشر في عمل اليد .

بالتعب والكدّ ليلًا ونهارًا لئلا نثقّل على احدٍ منكم » (٢ تسالونيكي ٣ : ٨) ونحن نستغرب المنّ الذي يمنّنا به بعض العالميين بقولهم : « ان اوقاف الرهبان هي من جدودنا » فاين هي هذه الاوقاف ؟ ليدلنا اصحابها عليها ويأتوا بالحجة والبرهان لاثبات هذا الادّعاء حتى نسلّم لهم مقتنعين . واذا كان من ثمّ بعض اوقاف من الاراضي فهي قليلة جدًا . وقد كانت باثرة قاحلة فاشتغلها الرهبان وصيّروها جيّدة خصبة وقابلوا اصحابها بتعليم اولادهم واحفادهم مبادئ الديانة والقراءة بدون بدلٍ، وتقديم قداديس معيّنة لاجل نفوس امواتهم وغير ذلك من المنافع الروحية والمادية التي يسوقها اليهم الرهبان . فكانّ هذه الاوقاف قد صارت، بحصر المعنى ، مبتاعةً ابتياعاً لا عطاء ولا هبة . اذًا فلينصف العقلاء المنصفون .

واذا كانت الرهبانية تسلّمت بعض اديار فقد انتهت اليها رثّةً وخراباً وعجز المتولون عليها عن قيامها ووفاء الديون عنها[1] ، ولمّا آلت الى التلف والدثور تداركتها الرهبانية ووفت ديونها وبذلت على عمارها وتجديدها مالًا كسبته بتعب ابنائها . واليك ما يثبت كلامنا : انّ الرهبانية انفقت على ترميم بعض الديورة اربعة وثمانين الفاً وتسعة وعشرين غرشاً[2] ، ويعادل الغرش في ذاك العصر نحو مئة غرش ذهباً من النقود الحاضرة[3] . ومن تصفّح سجلات اديارها واطّلع على الصكوك والحجج المصونة في خزائنها ظهر له انّ املاكها ومقتنياتها ابتاعها رؤساؤها وابناؤها بمالٍ حصّلوه بكدّ ايديهم وبدم هرقوه ثمناً لها وحفاظاً عليها

واذا راجعنا تاريخها وامعنّا النظر في واقع الحال الآن رأينا انّ كثيرين من اهل القرى يعيشون وعيالهم بفضل الديورة المجاورة لهم ، اذ تفرز لهم الرهبانية حصةً من املاكها فيشتغلونها ويُقسم ريعها بين الفريقين ويُسمّى هؤلاء شركاء مساقاة . واذا ألمت بهم حاجةٌ او مصيبة اسرعت الرهبانية الى دفعها عنهم وحضنتهم كما تحضن الامّ اولادها . ناهيك من الفوائد الروحية المبذولة لهم .

وكم من قرًى عديدة هجرها اهلها المسيحيون فاقفرت بسبب الفزو والسلب

---

١) طالع تاريخ الرهبانية ج ١ و٢ ٢) سجلّ دير اللويزة المخطوط

٣) تاريخ الرهبانية ١ : ٤٢٠ وفيه اسعار الحاجيات في ذاك العهد ، وتجد في ص ٩٠ بيان نفقة ترميم مطحنة دير ابي علي

والاضطرابات والحروب ، وتشتتوا في كل مكان يقاسون عناء المرارة والفقر والهجر . ثم رجعوا الى قراهم وعمروها وتوطنوها بتوطن الرهبان جيرانهم فاستأنسوا بهم وزالت مخاوفهم بجوارهم وعادت السكينة الى قلوبهم اذ كان الرهبان يتلقون عنهم الضربات ويقحمون الاهوال والمخاطر ويعلمونهم الصبر والجرأة على مقارعة الخطوب والنوازل .

واننا نورد هنا شهادة اثريّ خطير وعالم جليل درس تاريخ بلادنا بدقة وروية وكتب فيه فصولاً تاريخية ثمينة قال :

« ان ظهور النصرانية فتح باباً جديداً للتمدن والحضارة في لبنان . فانّ المستعمرات الرهبانية اتخذت لبنان مقرّاً لاعمالها النسكية وقد اختارت لذلك اقفر ما وجدته من الاودية فصار النساك يجيلون فيها يد الحراثة حتى اضحت هذه المناسك بعد زمن مراكز لضياع عديدة كما جرى في اوربة حيث نرى مدناً كثيرة كانت في اول امرها ديورةً للرهبان اوى اليها القوم فصارت مع تعادي الايام بلاداً واسعة » (١)

خذ لك ما يدعم هذه الحقيقة الواضحة : نشبت الحروب والاضطرابات في بلاد جبيل والبترون واستعرت نيرانها واندلعت السنتها في امكنة كثيرة ولاسيما في وادي ايليج (ميفوق) ونزل باهلها من ضروب المكاره والمظالم ما اضطرّهم الى التروح عنها الى اماكن تسودُ فيها الراحة والسكينة . فهال الامير يوسف شهاب ، الحاكم المسلم ، ما صارت اليه البلاد من الخراب والدمار لانه لم يجرؤ احدٌ على السكن فيها ، فعقد مجلس ديوانه وشار عليه كاتبا سرّه الشيخان المارونيّان ابوفارس سعد الخوري وسمعان البيطار ان يسهّل الطرق لقيام الرهبان اللبنانيين في هذه البلاد رغبةً في عمرانها لانها امست قاعاً صفصفاً ومأوًى للدببة والثعبورة كعدتون ورام وراشا ومار ماما والسدوق ومحمرش وميفوق الخ ... وان الثعبورة كانت منتشرةً على الطرق لاسيما على طريق حاقل وخفسد الى قرب جبيل وتقطعها على المارّة ، وكان النمر موجوداً بكثرة في ارض دير ميفوق كالعريا ووطا عيطا ، فملّك الامير يوسف الاب اقليموس المزرعاني رئيس الرهبانية اللبنانية العام خرائب دير ميفوق ، ودير كفيفان ، ودير حوب ،

(١) الاب هنري لامنس اليسوعي

وانطوش جبيل وكنيسته الكبرى ، وباقي كنائس سهل جبيل وما يتبع هذه الاماكن من الاراضي ، بصكوك شرعية سنة١٧٦٦ ، وكان يستوفي منها الاموال الاميرية . انتشر الرهبان في هذه المحال يقيمون فروض العبادة والصلاة ، ويمكفون على عمل اليد تحصيلاً للقوت ، وقد عانوا من صنوف الظلم والجور الذي الحقه بهم القوم الغزاة الطامعون السفاكو الدماء ما لا يستوعب وصفه هذا المقال حتى أُلجئ رهبان دير ميفوق الى الفرار منهزمين احياناً الى الاودية والمغاور يختبئون فيها متوسدين الحجر وملتحفين الفضاء ومخبئين آلات العمار وآنية الدير النحاسية في شقوق الارض وكهوفها .

وكان الامير يوسف شهاب والشيخان البيطار والخوري لا يفترون عن مساعدتهم وحمايتهم على قدر الاستطاعة وتنشيطهم على احتمال الكوارث والملمّات ، وما انفكوا ينازلونها حتى ذللوها بصبرهم وجهادهم وصرفوا ، وسائر اخوانهم الرهبان ، الهمّة الى تعمير الاديار في بلاد جبيل والبترون واحياء موات الاراضي السباخ وذات الصخور والاشواك ، فعاد الاهالي الى قراهم يمارسون واجباتهم الدينية بانبساط وسرور لائذين بجاههم مستطيبين العيش في جوارهم . وتقلّص ظلُّ الخوف والجور رويداً رويداً ، فعمرت البلاد ورفرفت فوق ربوعها طيور الامن والرخاء.[1]

أليست هذه مأثرة من مآثر الرهبانية البيضاء في جنب الدين والوطن والبلاد ؟

. . . .

واذا اجلنا الفكر بالصناعة في الرهبانية رأيناها في كل عصر قد مثلت فيه ادوارها ، وكانت زاهية زاهرة . فرأينا الرهبان ابعد مطلباً ومطمحاً واحدّ ذهناً من عامّة الناس واسبقهم الى اتقانها والمهارة فيها . فكان منهم البنّاؤون ، والحدّادون ، والنجّارون ، والحيّاكون ، والطبّاعون ، والخيّاطون ، والاسكافون ، والسنكريّون ، والمصوّرون ، والاطبّاء . وقد ازدهرت هذه الصنائع في الرهبانية ايّما ازدهار واتسع نطاقها في الاديار فاصبحت بغنى عن اسعاف الايدي الغريبة .

١) عليك بالنبذة التاريخية في دير سيدة ميفوق التي نشرناها في مجلة المشرق (٢٤ [١٩٢٦] : ٥٦٧–٥٧٥ و٦٤٩–٦٥٧)

وعن ابنائها تلقّن بعض العاملين اصولها فكانت مرتزقاً لهم ولعيالهم.

وقد دهش السيد ميسلن لدن رأى المطبعة في دير قزحيا ودار التجليد وسائر الصنائع قائمة على قدم وساق فقال :

« زرنا كل معاهد الدير وأعجبنا بالمطبعة التي هناك فانَّ الرهبان يتمكّنون ان يطبعوا عليها ، مع قلّة ادواتها ، ما يثابرون بالتتبع العربية والسريانية مما يدلُّ على نشاط لا يعرف الملل وهم تستهين بالمصاعب . وهناك مصانع لتجليد الكتب والنجارة وغيرها من الصنائع . ولقد طفتُ فلسطين ولبنان كله فلم اجد مطبعة او مكتبة الا في الاديار . وهذا ما يؤيد قول القائلين انَّ الرهبان هم اعداء الجهل . »

ولمّا اتى محبسة الدير واراه الحبيس ، الذي مضى على سكنه فيها خمس واربعون سنة ، مغارته التي يُحفظ فيها القربان الاقدس على مذبح جميل من نحت يده قال : « انَّ امهر النحّاتين لا يمكنه ان يأتي بمثل ذلك التنضيد الذي صنعه الحبيس على مذبح مغارته . »

زرنا في ١٩٢٥ دير القديس اليشع القديم ، في سفح الوادي المقدّس ، فوجدنا هناك صندوقاً كبيراً للحنطة من خشب الشربين يسع نحو ستين شنبلاً ورأينا اجزاءه فاذا هي ملتحمة متداخلة بعضها في بعض بدون ثقب ولا مسمار ، وهو اثرٌ جميلٌ للمتانة في هذه الصناعة وقد حُفر اسم صانعه على عارضة منه وهو « القس بيمين العرامونى سنة ١٧١٩ »

والذين مهروا واشتهروا في هذه الصنائع من ابناء رهبانيتنا البلدية اللبنانية كثيرون ، نأتي على ذكر بعضهم .

في البناء

الآباء : عبد الله الاهدجي ، وعبد الاحد البكاسيني ، ويوسف القليطاني ، وتادروس صليبا الشوف[1] ، ومرتينوس ديك المحدي ، ومخائيل الخرّاط البكفاوي ، وتادروس البشرّاوي . ومن الاخوة : حنا حراجل ، وحنا الشنعيري ، وبولس المشمشاني ، وعبد المسيح الغلبوني ، ويوسف المعادي ، ويعقوب الدلبتاوي ، ومبارك شقيق الاب تادروس صليبا المذكور ، واجناديوس وعبد الله التنّوريان . واقدرهم واشهرهم الاخ عبد الله الخيّاز المزرعاني اصلاً ، ومزرعة شبرمار[2] مولداً .

١) قرب دير سيدة مشموشة في جزين. ٢) شرقي دير قزحيا

تلقّى صناعة البناء على الاب عبد الله الاهدني ، وسمّي باسمه وقد عُرف باسم : الاخ عبد الله الحجار ونعت « بمقدام الحجّارين والبنّائين ومعلّمهم .[1] » وعليه أتقن هذه الحرفة وبرع فيها ابن شقيقه الاخ ميخائيل الحجّاز الذي اخذ عنه صناعة البناء والنحت بعض اهالي قرية ميفوق . وقد اشتغل هؤلاء الرهبان البنّاؤون ولاسيما الاخوين عبد الله وميخائيل في عمار وبناء وترميم معظم اديارنا كرشميا ، ومار روكس مراح المير[2] ، ونسبيه ، والقطارة ، وميفوق ، وعنّايا ، ومار ساسين بسكنتا ، وقزحيا ، والجديدة ، وفي الجسور والطواحين والسدود والمعابر[3] .

في النجارة

الآباء : مرتينوس بقسميا ، وعمانوئيل مطر اللحفدي وقد أتقنها على يد الاخ برتلماوس خير الميفوقي ، ويولس نون الجرانيّ . ومن الاخوة : جبرائيل العراموني ، ويعقوب المزرعاني ، وبطرس بقسميا ، وانطونيوس الحدتوني ، واندراوس حرب التنوري ، واسطفان ابي هيكل اللحفدي . وكان أبرعهم واقدرهم تفنناً المرحوم الاخ برتلماوس خير المذكور ، وله في اديار بلاد جبيل والبترون آثارٌ تشهد له بالتفنن والمهارة في هذه الصناعة[4] .

في الحياكة

من معاصرينا ، الآباء : سمعان لبعه ، واسطفان النيحاوي ، وجرجس ابي نادر المعادي ، وفرنسيس صليبا السبريني ، ونعمة‌الله ابي لطف الله الصغاري . ومن الاخوة : حنا بيت لهيا ، ومبارك حرقا ، ومبارك البزعوني ، ومرتينوس العنداري ، وروكس الكفيفاني ، ويولس الحشاش الميفوقي ، واندراوس حرب ، ويوسف سنجب مطر التنوريان . . .

في السكرة

الاب اقليموس مراد التنوري ، والاخوان بطرس الفريديسي ، وجبرائيل

---

١) كذا دعاه كاتب ترجمة الاب لورنسيوس الشابي الخطية . توفي الاخ عبد الله في دير الجديدة في ٣٠ آذار سنة ١٨٧٣ وذكر الاب انكدري : « انّ له اتعاباً وافرة في الرهبانية . »

٢) قرب عجلتون ٣) اخذنا اسماءهم عن نُبذٍ تاريخية بيدنا .

٤) ادركته الوفاة في دير ميفوق في ٨ شباط ١٩٢٦

غبروش الكفيفاني ...

في الطباعة والحفر

الآباء : ساروفيم شوشان البيروتي ، ومرقس الاهمجي ، وهارون أيطو الذي ادار مطبعة دير قزحيا خمساً وخمسين سنة[1] ، ومتى تولا الجبّة ، والاخ ساروفيم حوتا ... ويدير الآن مطبعة دير سيدة المعونات (جبيل) الاخ جرجس حرب التنوري .

في التجليد

الآباء : اغناطيوس بليبل ، ونعمة الله الحرديني المشهور « بقديس كفيفان » ، وبولس كفرحتنا ، وهارون ايطو ، وحنا الشبطيني ، وسمعان ايطو ، ومرقس ايطو ، وبولس غوما ...

ولا نعرف من الذين اجادوا حرفة الخياطة واتقنوها سوى الايوين مارون السرعلي الجبيلي ، ورافائيل الحصروني اللذين كانا يخيطان وشاحات (بدلات) جميلة للتقديس .

في الطب

الآباء : اليشع المعادي ، ومتى تولا الجبة ، ومارون الصغابي ، واقليموس مراد التنوري ، ودانيال الحدثي المعروف « بقديس ترطبا » . والاخوة عبد المسيح الشبابي ، وناوفيطوس وحنا السرعليان ، وبطرس ابي موسى الاهمجي ...

في التصوير

الآباء : نستير الطرابلسي ، وبطرس القبرسي ، ونستير مدلج قيتوله ، واسطفان وشربل الديرانيان ، والاخ نعمة الله نعمة المعادي ، درس هذا الفنّ على الفنان البارع الاستاذ حبيب سرور الماروني ، وارسلته الرهبانية الى باجكة فاتقنه هناك كما اتقن الحفر وصبّ التماثيل من الجبص . وان الصور التي رسمتها يده في الاديار وكنائس القرى ، وقبب النواقيس ، والمذابح الرخامية ذات الحفر والنقوش البديعة تنطق بمهارته وخبرته .

---

١) راجع ترجمة حياته التي اثبتناها في المشرق (٢٣ [١٩٢٥] : ٥١٠-٥١٤)

في الحدادة والفردحة

الاب مارون علوان ايطو ، والاخ نعمة الله المحمرشي الذي أعجب به حنا الياس واولاده المشهورون في دوما (لبنان).

ومن جال في انحاء لبنان رأى اديار الرهبانية المارونية القائمة على قمم جباله وفي سفوح اوديته كطيور الحمام البيضاء او كالاسود الرابضة في اجماتها تملأ العين قرةً والنفس مسرةً ، يحيا فيها الرهبان حياة العبادة والصلاة والعمل باثين في الشعب هذه الروح الطيبة . واننا نختم هذا المقال بكلام بليغ من خطاب شائق القاهُ سعادة سفير فرنسة لدى حكومة الجمهورية الفضيّة في حفلة اكرامية اعدّها الشعب الارجنتيني والجاليات اللبنانية والسورية لسيادة المطران شكرالله خوري ، الزائر البطريركي الماروني في اميركة ، وقد ترجمته جريدة البشير البيروتية المعتبرة ونشرته[1] . قال السفير صاحب الخطاب :

« انا زرتُ سورية في صباي ، واجاهر امامكم ، ايها السادة ، بعد ما عشت متنقلاً في جميع اقطار العالم تقريباً ، انّ ما من تذكار في مخيّلتي اجل من مناظر الاديار المارونية القائمة على ضفاف العاصي تحيط بها الجبال المنتظمة السلسلة المغروسة باشجار الزيتون والدفل . لقد نزلتُ ، والحق يقال ، في ضيافتهم فعاملوني معاملة الابن . ولكن الذي يترقّل الى اعالي قمم لبنان يشاهد اديارًا أخرى لبنانية اجل من الاولى ، لا يقف امام البصر الممتدّ منها نحو الغرب الا غابات الصنوبر وخط البحر الازرق !

« هنالك نَمَتْ في الماضي قوى نشاط حيّة وحضارات شعوب ، واصول مدنية وحضارة وقوى روحية ، غيّرت شكل البشرية المفكرة فارتكز الحبُّ مكان اللذّات القديمة .

« لا شك انّا ملتزمون بعرفان جميل كثير لرهبان الذين يعلّمون ويتأملون في الحقائق الازلية غير المتناهية لان الافاضل بينهم طرّقوا الروح العصرية وهذّبوها ، ورقموا ان اوج سام روح الانسان وقلبه وعلّموا البشر الصلاح والاخلاص والتقوى والفضيلة . ونحن جميعنا ، كنا مسيحيين او لم نكن ، تتعبد لهذه الاشياء السامية ونحنُّ اليها ونفتخر بها . . . »

---

١) جريدة البشير في ٨ شباط سنة ١٩٢٣ عدد ٢٩٧٦